تمظهرات الهوية في الرواية العربية المعاصرة، وتأثيرها على المتلقي، الرواية التونسية أنموذجا، دراسة تحليلية نقدية لرواية " أن تبقى " لخولة حمدي،
الباحثة قرنان نسيمة،جامعة أحمد ابن يحي الونشريسي- تيسمسيلت.

نتناول في هذه الورقة البحثية موضوعا من المواضيع التي كثيرا ما أسالت الحبر في الميدان الأدبي والنقدي وذلك لتأثيرها المباشر على القارئ؛ ألا وهو موضوع الهوية في الرواية العربية المعاصرة. ولقد ارتأينا أن نخوض في هذا الموضوع من جانبين مختلفين؛ تمظهرات الهوية من جهة، وتأثيرها على القارئ من جهة ثانية. ولقد كانت لنا في ذلك وقفة عند الرواية التونسية من خلال دراستنا لرواية "أن تبقى" لخولة حمدي، ضمن محور: الرواية العربية المعاصرة وسؤال الهوية. ونحاول من خلال ذلك إبراز مدى تجلي الهوية في كتابات الروائيين العرب من خلال مدونة خولة حمدي ومدي تأثيرها في المتلقي.

مقدمة:

احتلت الرواية في العصر الحديث الريادة بين الأجناس الأدبية كونها نقلت هموم الأمم وتناولت مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية وغيرها، فقد اختلفت التجارب الروائية وتباينت مستويات الكتابة واستطاعت أن تلفت انتباه القارئ وتؤثر فيه بصورة مباشرة بفضل خصائصها المتميزة، إذ وصفت الرواية بأنها الفن الأدبي الأول الذي سجل أيام الناس وانشغالاتهم وهمومهم لدرجة أنها أصبحت بمثابة بطاقة هوية لمختلف الطبقات الاجتماعية، كما تطرقت الرواية العربية المعاصرة خاصة إلى موضوع شائك وهو موضوع الهوية كونه من بين الموضوعات الحساسة التي وقف عندها بعض الروائيين ودرسها النقاد لعلاقته هذه التيمة بالحياة التي نعيشها، لنجد أن الرواية العربية المعاصرة اليوم أصبحت تحظى بأهمية كبيرة في الساحة الأدبية العربية والعالمية بعد أن رسخت خطاها واتسعت دوائرها شيئا فشيئا بظهور نصوص روائية تسنى لكتابها النهوض بالنص الروائي العربي والارتقاء به إلى مصاف العالمية.

الرواية العربية المعاصرة الواقع والآفاق

يحمل مصطلح رواية في مفهومه الاصطلاحي العديد من التعريفات المتشعبة حتى بات

من المستحيل الوقوف على مفهوم محدد لفن الرواية والإلمام به، فقد أفر عبد المالك مرتاض بصعوبة تعريفها؛ إذ يري بأن الرواية عبارة عن مزج بين مختلف الأجناس الأدبية فيقول: " تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه وترتدي في هيئتها ألف رداء وتشكل أمام القارئ ألف شكل مما يعسر تعريفها تعريفا جامعا مانعا، ذلك لأن الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى بمقدار ما ستتميز فيها بخصائصها الحميمية وأشكالها التصميمية، بالإضافة إلى اشتراكها مع الحكاية والأسطورة وذلك على أساس أن الرواية الجديدة المعاصرة بوجه عام لا تلتقي أي غضاضة في أن تغني نصها السردي بالمؤشرات الشعبية والمظاهر الأسطورية و الملحمية[1]"ومجمل القول أن الرواية من أهم لفنون النثرية الحديثة التي حملت في طياتها العديد من الأجناس الأدبية المختلفة، فهي صورة عن الواقع وهي التي رسمت تجارب الأمم عبر العصور المختلفة؛ فقد اختزلت الآثار السعيدة والأليمة كونها توثيق للماضي وتأسيس للحاضر وتطلع للمستقبل.

كما جاء في معجم مصطلحات النقد أن المقصود بالرواية في صورتها العامة " نص نثري تخييلي سردي واقعي، غالبا يدور حول شخصيات متورطة في حدث مهم وهي تمثل الحياة والتجربة واكتساب المعرفة.[2] "وفي هذا السياق، فقد كانت الرواية العربية عامة رصدا لمختلف التحولات التي شهدها العالم العربي خاصة إبان الاستعمار، واستقطبت بذلك عددا من الروائيين لمعالجة قضايا الواقع الاجتماعي ورصد صورة واضحة عن حالات الاضطهاد التي كان يعيشها المجتمع آنذاك، فقد اتخذ الروائي من معاناة الشعب وظلم الاستعمار مادة أولية لتأسيس العديد من الأعمال الإبداعية.

يقر المؤرخون والنقاد أن" الرواية العربية الأولى ظهرت سنة 1847 للميلاد وكانت منذ نشأتها تحت تأثير عاملين هما الحنين إلى الماضي والافتتان بالغرب، فظهرت مثلا روايات جورجي زيدان التاريخية المشهورة، وخطت الرواية العربية خطوة جيدة على يد أمثال جبران خليل جبران وأمين الريحاني ثم ميخائيل نعيمة، وفي عام 1914 صدرت رواية

[1]- عبد المالك مرتاض، **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص.11.

[2]- لطيف زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية (عربي –أنجليزي-فرنسي)**، دار النهار للنشر، لبنان، ط.1،2002،ص.99.

"زينب" لهيكل وهي التي يعتبرها النقاد منعطفا هاما في مسار الرواية العربية[3]"

والظاهر أن شلال هذا الفن الروائي العربي قد انطلق بعد هذا الحين؛إذ سرعان ما تدفق بنتاج ضخم يرجع سببه في بادئ الأمر إلى الاقتباس والتعريب مع جيل مصطفى لطفي المنفلوطي في رواياته المعربة مثل الفضيلة،الشاعر.. إضافة إلى مرحلة الترجمة مع طه حسين لتصل بعدها إلى مرحلة التبلور والتأصيل مع نجيب محفوظ؛ إذ أستطاع الفن الروائي العربي أن يدخل مرحلة اصطلح عليها بالرواية العربية المعاصرة، وقد ميزت هذه المرحلة مجموعة من الخصائص لعل أهمها الاعتماد على لغة إيحائية رمزية بعيدة عن التقريرية المباشرة المألوفة، فتميزت الرواية العربية المعاصرة بعمق الرؤية وثراء مواضيعها المختلفة الجريئة في الكثير من الأحيان؛ إذ خرج الروائي للقارئ بروايات إبداعية مصدرها الإلهام وقد نالت أغلبها حضوة القارئ العادي والناقد المتمرس.

فقد عرفت الرواية العربية المعاصرة انتعاشا غير مسبوق في الآونة الأخيرة من حيث الكم والنوع، وبرزت فيها أقلام شابة من المشرق والمغرب، ولم تبق الكتابة الروائية حكرا على الرجال فقط بل اقتحمت غمارها أقلام نسائية تفوقت أحيانا عن الذكور.

الهوية ومقوماتها الأساسية

اهتمت الدراسات الفكرية واللغوية بمسألة الهوية كونها تعبر عن الانتماء، فقد اعتبرت الشغل الشاغل لاهتمامات المفكرين والفلاسفة ولا سيما الروائيين، فقد عالجها الفكر النقدي المعاصر بكثير من التعمق والتحليل فزاد ذلك من تطور وتنوع مفاهيمها واختلاف التعاريف.

مفهوم الهوية

يرتكز مصطلح الهوية على الكثير من المفاهيم المستنبطة من مرجعيات مختلفة، وهذا ما جعله مفهوم مضطرب تكتنفه الضبابية والغموض بالغم من أنه يبدو محسوم الفهم، لهذا كثير ما يتم خلطه بمفاهيم ومصطلحات أخرى كالثقافة مثلا والشخصية وكذا الأنا والذات، "كما يمكن للمرء أن ينظر إلى الهوية على أنها مجموعة سماته المميزة والدائمة

[3]- رحيم خابكور، " لمحة عن ظهور الرواية العربية وتطورها" **مجلة دراسات الأدب المعاصر**، ع.16، 2012، ص.101.

التي تميزه بوصفه مخلوقا لا تخطئه العين، والهوية هي ما يمكن للإنسان أن يصف به الآخرين إلا أن الهوية هي أيضا ما أصف فيه نفسي عندما أتأمل ذاتي بصورة مكثفة وأشكل صورة ذاتي"[4].

ومن جهة أخرى يمكن أن تعرف الهوية "بأنها ما يصمد من الإنسان عبر الزمن، إذ تلازمه مكونة شخصية محددة بشكل ثابت ما يمنح إبداعه طابعا خاصا فلا يكون مسخا للآخرين[5]".

وفي هذا المقام نصل إلى أن الهوية من أصعب المواضيع وأكثرها تعقيدا لانتفاء سمة التخصص فيها، لهذا نلمس التغيير الملحوظ من خلال مفاهيم الهوية المختلفة، وذلك لاختلاف الآراء والمنطلقات التي يتبناها كل باحث، إذ "لا تكون الهوية كاملة أبدا وهي ليست شيئا تدركه الحواس وإنما هي صيرورة غير منتظمة، أنها على قيد البناء على نحو دائم[6]".

إضافة إلى هذا نجد أن للهوية عناصر وأسس تقوم عليها وإن اختلفت آراء الدارسين حول التقسيم الأمثل لهذه العناصر كل باحث حسب رأيه ونظرته التي يلمس فيها نوع من الصواب ويقول محمد الهرماسي في هذا الصدد" يبدو لنا أن الدين واللغة والثقافة هي أبرز مكونات الهوية[7]"

ومن هنا نستنتج أن الثلاثي المشكل من الدين والثقافة واللغة يعد من بين أهم الركائز التي يقوم عليها مفهوم الهوية ونحاول من ثمة أن نتطرق إليها.

الدين: الإنسان بفطرته ميال إلى ما يطلق عليه دين أو ديانة مند قدم العصور، فهو " سمة متأصلة في النفس الإنسانية مثل باقي الغرائز الأخرى؛ لأن التدين فطرة في الإنسان

---

[4]- بيتر كوزان، **البحث عن الهوية وتشتتها في حياة إيريك أيريكسونوأعماله**،تر. جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، الأمارات العربية المتحدة،2010،ص.93.

[5]- ماجدة حمود، **إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)**، عالم المعرفة الكويت، 2013، ص.15.

[6]- نهال مهيدات، **الآخرفي الرواية النسوية العربية، في خطاب المرأة والجسد والثقافة**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط.1،2008،ص.11.

[7]- محمد الصالح الهرماسي، **مقاربة في إشكالية هوية المغرب العربي المعاصر**، دار الفكر، دمشق، 2001، ص.27.

وهو جزء من كيانه ووجوده[8]".

ومن هنا يمكن القول أن الدين هو مجموعة من المبادئ والقيم التي تدين بها أمة أو جماعة اعتقادا أو عملا، وتظهر في كتب ومرجع وروايات، ويعتبر الدين أحد الثوابت المهمة في تشكل هوية المجتمع. ومن جهة أخرى فالهوية تستمد من الدين جزء مهم من فعاليتها وقوتها.

اللغة: إن الحديث عن أسس الهوية يقودنا إلى الحديث عن اللغة كونها الركيزة الأساسية بعد الدين في تكوينها. فاللغة ليست مجرد أداة للتواصل فقط بل تقوم بأدوار كثيرة ومتنوعة، فهي " وسيلتنا لفهم العالم وتمثيله في أذهاننا للتواصل مع الآخرين[9]". كما أنها " أهم مظهر لتجسيد الهوية لأنها تشكل العامل الأساسي في تكوين الأمة وربط نفوس الأفراد، فهي مراد الشعب ومستودع تراثه وديوان أدبه وسجل مطامحه وأحلامه وأفكاره وعواطفه ورمز كيانه الروحي، وعنوان وحدته وتقدمه، وخزانة عاداته وتقاليده[10]".

وبهذا التعريف نكون قد أكدنا على الدور البليغ الذي تلعبه اللغة في تشكيل الهوية؛ لأن باللغة تحافظ الأمة على تاريخ الجماعة وإقامة جسور التواصل لتنقله من جيل إلى جيل.

الثقافة: أخذت الثقافة حيزا كبيرا في تحديد مفهوم الهوية لدرجة الخلط بين مفهوم الثقافة والهوية، باعتبار الثقافة تمثل القاعدة والأساس الذي تقوم عليه الهوية، "فالثقافة هي ذلك المركب المعقد الذي يشمل المعتقدات والفن والأخلاق والعرق والعادات والتقاليد وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضو في المجتمع[11]". ومن هذا يمكن لقول أن الثقافة هي طريقة الحياة التي يتبعها

---

[8]- محمد الزحيلي، **وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه**، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دمشق، 1991، ص.32.

[9]- عبد المالك مرتاض، "أصالة الشخصية الجزائرية"، **مجلة الأصالة**، ع.8، الجزائر، 1972، ص.225.

[10]- ميمون مجاهد، "اللغة الرسمية والهوية الوطنية في ظل المجتمع متعدد اللغات"، **حوليات التراث**، مستغانم،2006، ص.57.

[11]- محمد سعيدي، **مقدمة في أنتربولوجيا الثقافة الشعبية**، الدار الخلدونية، الجزائر، 2015،ص.11.

مجموعة من الأفراد وفق نظام يساهم في تكوين الهوية كون الثقافة هي روح الهوية.

الكتابة الروائية وأثرها على هوية المتلقي:

استطاع الفن الروائي أن ينافس جميع الأجناس السردية وذلك من حيث المقروئية والرواج الذي لقيه هذا الفن بين جمهور القراء بشكل عام كونها تناقش قضايا تلمس حياة المتلقي وتأثر في هويته، والرواية العربية المعاصرة اليوم تكتسي مؤخرا مصاف العالمية خاصة بعد ظهور وبروز نصوصا روائية جديدة تجسد في مساعيها الجسر الرابط بين الأنا والآخر، فقد حاول الروائي من خلالها أن يخاطب القارئ ويحاول أن يؤثر فيه وفي هويته عن طريق الرسالة التي تحملها الرواية والتي بدورها تبرز أفكار ومعتقدات الروائي التي نراها تمتاز بالإنفتاح على الثقافة الغربية وتارة تتسم بالانغلاق وبين هذا وذاك نجد أن فئة معينة تختار الوقوف دون ترجيح كفة على أخرى والتجاوب بين الانفتاح والانغلاق

أثر انفتاح الهوية: أصحاب هذا التيار يدعون صراحة وعلنا بالإعجاب بالحضارة الغربية، ولعل قول سلامة موسى يؤكد لنا ما قلناه إذ يقول:"هذه هو مذهبي الذي أعمل به طوال حياتي سرا وجهرا فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا[12]"

ومن خلال هذا القول يتبين لنا صراحة كيف للكتابة الروائية أن تؤثر بصفة مباشرة في هوية المتلقي؛ إذ نرى أن هؤلاء الروائيين يوجهون رسالة مشفرة إلى القارئ يدعونه فيها إلى الانفصال عن الذات والتعلق بالآخر وهذا يؤدي إلى طمس هوية الأنا والانفتاح السلبي على كل ما جاء به الغرب و نادى به على حساب المبادئ والأسس والثوابت التي تقوم عليها الهوية العربية الإسلامية

وكثيرا ما نلمس هذا الطرح في كثيرا من الروايات العربية المعاصرة خاصة، فنجد بعض الكتابات الروائية تجسد ذلك النظرة الانبهارية القائمة على الإعجاب بالأخر الغربي؛إذ نجدهم ينظرون إلى الآخر بعين إيجابية لما وصل إليه من رقي وتقدم، وإلى

[12]- محمد راتب الحلاق، **نحن والآخر**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص.37.

الذات بعين سلبية قائمة على التدني والاحتقار

انغلاق الهوية: كثيرا ما تناولت الروايات العربية المعاصرة هذا الطرح، فنجد الروائيون يصورون لنا بشاعة وهمجية وغدر الآخر الغربي، بدعوى أن الأنا العربية قد عانت القهر والقمع والاضطهاد من طرف الغرب المستعمر، فقد جسدت لنا تلك النزعة العدوانية اتجاه الآخر، كما طرحت للمتلقي ذلك الصراع والصدام القائم بين الشرق والغرب منذ الأزل، وهذا ما نجده يوثر كثيرا على هوية المتلقي فينغلق على نفسه وتكبر لديه غريزة الكره اتجاه الغرب بدعوى المحافظة على هويته الشخصية، وبالتالي رفض كل ما هو أجنبي والسبب الرئيسي يعود إلى الروائي نفسه الذي يحث القراء على نفي الغرب حياتهم العامة، ويرى الهوية العربية نقيضا للآخر

الهوية بين الانفتاح والانغلاق: نلمس هذا الطرح أيضا في الروايات العربية المعاصرة؛إذ نجد أن بعض الروائيين يصرحون بأن انغلاق الذات العربية على نفسها لا ينفعها بل لابد من تبادل الخبرات والمعارف والعلوم مع الآخر الغربي، ولكن لا يجب أن يتبعه في كل شيء؛ إذ هي علاقة تقف موقف" يأبى الانكماش على الذات لأن إنكار الثقافة الغربية لا يستطيع أن يشكل في حيثياته ثقافة ولأن الرقص المسعور حول الذات المنفردة لن يجعلها تنبعث من رمادها"[13].

ومن خلال هذه الرسالة يحاول الروائي أن يحث القارئ أن يدرك خير الآخر وشره، كما أن " المثقف لا يمكن أن يرى الهوية تقوقعا على الذات من أجل الحفاظ على معطياتها ويرفض الانفتاح على الآخر؛ لأن ذلك يعني الجمود والضعف والانحطاط مما يناقض مفهوم الثقافة الذي يقوم على التطور والاعتراف بكل معرفة جديدة [14]".

وهذا ما جسدته لنا بعض الروايات العربية المعاصرة من خلال إبراز ذلك الجانب الودي بين الشرق والغرب القائم على التعايش الحضاري التي تصل في كثير من الأحيان حد تشكيل علاقات اجتماعية وطيدة يحكمها المبدأ الأسري المبني على المودة والاحترام.

تمظهرات الهوية في رواية أن تبقى لخولة حمدي:

[13]- المرجع نفسه، ص.38.

[14]- ماجدة حمود، المرجع السابق،ص.16.

تعد مسألة الهوية من بين التيمات التي طرحها الروائيون في أعمالهم الإبداعية كونها من بين القضايا العسيرة والحساسة العالقة في المجتمع

ولعل من أبرز الروايات العربية المعاصرة التي طرحت للقارئ إشكالية الهوية نذكر الرواية التونسية"أن تبقي" للكاتبة خولة حمدي، والتي نالت حظها من الهرة والرواج وكذا نسبة المقروئية العالية؛ إذ تدور أحداث هذه الرواية بين الجزائر وفرنسا حول قصة محامي شاب فرنسي من أب جزائري وأم فرنسية يدعى خليل دانيال الشاوي، يدعى والده نادر الشاوي و والدته الفرنسية ديانا، وتبدأ أحداثها هاجر والده إلى فرنسا عن طريق الهجرة غير الشرعية عبر قارب الموت، حيث صورت لنا الرواية تلك المعاناة التي تكبدها نادر وغيره من المهاجرين من ويلات الغربة بما تحمله من مأساة وتشرد وتمزق للهوية الشخصية، كما صورت لنا الروائية ذلك التعايش الحضاري بين الأنا والآخر من خلال زواج نادر من امرأة فرنسية والتي هي أم ابنه الوحيد الذي لم يتعرف على أبيه إلا عبر حزمة الرسائل التي تركها له والده قبل وفاته والتي استطاع خليل من خلالها أن يتخطى أزمته ويجمع بين ازدواجية الهوية الفرنسية والجزائرية وكذا الاعتراف بأصوله العربية وبوالده أخيرا

ملامح الهوية في رواية أن تبقى لخولة حمدي

طرحت الكاتبة التونسية في هذه الرواية قضايا المجتمع العربي ومسألة الهجرة غير الشرعية، أو بالأحرى قضية تأزم الهوية في بلد أجنبي. وتناولت هذه المسألة في بعدها الديني وكذا الثقافي وحتى اللغوي.

الهوية الدينية

ركزت الروائية في روايتها على الهوية الدينية وبينت لنا كيف حافظ المغتربون العرب والمسلمون على موروثهم الديني الإسلامي بالرغم من تغييرهم لموطن عيشهم. ولعل أبرز مثال على ذلك هو شخصية الفتاة التونسية التي بالرغم من عيشها في فرنسا إلا أنها تعد رمزا للهوية الدينية؛ كونها حافظت على زيها الإسلامي وحجابها وكل ما يميز الفتاة المسلمة، وهذا ما ظهر من خلال وصف لها : " وجه طفولي مستدير ينم عن براءة مغلفة بقشرة هشة من القوة المستعارة.. غطاء رأسها الذي لا تتسلل منه شعرة واحدة وفستانها

الطويل الذي ينسدل حتى الأرض تحت معطف صوفي ثقيل ليست تدرأ به البرد فحسب بل تعلن به انتماء صارخا"[15]. فبهذا الزي قد عبرت مريم عن انتمائها الإسلامي ومدى تعلقها بدينها وضربت حقا مثالا حيا عن المرأة المسلمة المشبعة بالدين الإسلامي.

كما تظهر في الرواية أيضا ملامح الهوية الدينية لدى الفرنسيين، ومنه يقول نادر عن أم زوجته الفرنسية: " أخرجت صليبا فضيا من طيات ثيابها كان يتدلى من سلسلة رقيقة حول عنقها وقبلته في خشوع قبل أن تضيف عبرات محبوسة تتلألأ في عينيها: نحن أيضا مؤمنون يا ولدي"[16]. وهذا ما يدل على مسيحيتها وتشبتها بهويتها المسيحية.

نلمس أيضا من خلال الرواية النزعة الدينية للروائية فنرى بأن مرجعيتها إسلامية من خلال توظيفها لآيات واقتباسات قرآنية منها قوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم إن خير من استأجرت القوي الأمين"

" وجادلهم بالتي هي أحسن".

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك"

" وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين[17]".

الهوية الوطنية

الوطن بمعناه الحقيقي هو بيت الأسرة الذي يثبت الإنسان به هويته، لذلك كان الوطن هو الهوية في حد ذاتها، فمن دون وطن يصبح الإنسان مجرد من الهوية والانتماء.

تطرقت رواية أن تبقى إلى تبيين الهوية الوطنية من خلال التصوير للقارئ الظروف المعيشية الضنكى للمواطن المغاربي الذي انمحت الهوية الوطنية عنده، فلا يتجاوز معناها مجرد بطاقة تعريف تدل على انتماء بلا معنى خاصة الشباب منهم. وهم الذين انتظروا الكثير بعد استقلال أوطانهم لتحقيق أحلامهم وآمالهم، فأضحوا منفيين في أوطانهم بسبب التجاهل والقمع المسلط عليهم. إنهم يعيشون هدرا وجوديا حيث الذات

[15]- خولة حمدي،**رواية أن تبقى**، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، 2016، ص.11.

[16]- المرجع نفسه، ص.173.

[17]- المرجع نفسه، ص.

ملغاة. وهذا ما نلمسه من خلال الرواية حيث يقول نادر الشاوي، وهو يصف حاله وحال أمثاله المهمشين والعاطلين في وطنه الجزائر: "يجتمع شباب الحي من العاطلين يتداولون باستمرار أخبار الرفاق المحظوظين السابقين إلى السفر: نستند إلى جدران المقهى الخارجي ونتابع المارة بأعين فارغة، نلقي التحية على هذا ونعاكس تلك في غياب أدنى خطط المستقبل في الوطن. فإن أحاديثنا كانت تحوم حول الواقع المرير والأحلام الوردية[18]".

ومن هنا يمكن القول أنه حين يغيب الوطن كانتماء واحتضان يلجأ الفرد إلى الآخر في رحلة هروب من وطن يتنكر لأبنائه، فقد كان الحل الأمثل في نظر نادر وأمثاله من الشباب هو الهروب من الوطن. ومن جهة أخرى صورت لنا الرواية كيف كان نادر الشاوي شديد الارتباط بوطنه وهو في ربوع فرنسا التي تشكل حلمه الوحيد، حيث أن الحنين إلى وطنه كان طيفا ملازما له على الرغم من القهر والحرمان الذي عاشه فيه. فرغم كل هذا نجده يبحث عن أبناء وطنه للاحتضان في كنفهم، حيث يقول: "وقد كنت رغم ذلك أبحث عن الإحساس في أبناء وطني[19]". وهذا أبرز مثال على مدى تعلق الفرد بوطنه وحبه الشديد لأبناء جلدته.

الهوية الثقافية

كثيرا ما يعبر مفهوم الثقافة عن المعاني التي يجرها مفهوم الهوية، غير أن إضافة مفردة الثقافة لمفردة الهوية تشكل مصطلحا جديدا يعرف بالهوية الثقافية مما ينتج عنه مدلولا جديدا، تعرفه فاطمة الزهراء سالم بقولها: " من جملة الخبرات الاجتماعية والحكمة الأخلاقية والدينية والاتفاقات الأيديولوجية النظرية التي يصونها مجتمع ما[20]".

تظهر لنا من خلال الرواية ملامح ومظاهر الهوية الثقافية في مواطن عدة، منها ما عبر عن الثقافة العربية ومنها ما عبر عن الثقافة الغربية والفرنسية، باعتبارها الحيز الذي جرت فيه أحداث الرواية، وهذا ما استهلت به الروائية وصورت لنا الثقافة الفرنسية في قولها: " الزمن شتاء باريسي قارس والشوارع مزدانة بزينة رأس السنة التي يحل موعدها

---

[18]- المرجع نفسه، ص.27.

[19]- المرجع نفسه، ص. 114.

[20]- فاطمة الزهراء سالم،المرجع السابق، ص.30.

بعد أسبوعين، مصابيح بيضاء وملونة تغطي أدرع الأشجار المقلمة في تناسق على جوانب الطرقات وأشرطة مضيئة تمتد بين أعمدة الإنارة الشامخة، وموسيقى خافتة تنبعث من مكبرات صوت مبثوثة بين الأعمدة والأشجار[21]".

من جهة أخرى صورت لنا الروائية ملامح الثقافة العربية الإسلامية في رحم الغربة، حيث نجد بأن العائلات العربية المسلمة قد حافظت على تراثها وثقافتها رغم الاغتراب. لقد استطاع العرب أن يبنوا عالمهم الخاص ويعبرون به عن انتمائهم وثقافتهم وسط الأجواء الفرنسية. ويظهر هذا من خلال قول نادر وهو يصف أحد الشوارع الفرنسية: "كانت محلات خاصة بالجالية العربية تبدو للعيان، مجزرة لحوم حلال، بقالة شرقية، محل فواكه وخضروات، دكان حلاق، مطعم كباب، مقهى نرجيلة، خلاصة ما يحتاجه المقيم العربي حتى يشعر أن الوطن قد شد الرحال معه وحط المتاع حيث يكون[22]".

كما تظهر الرواية ملامح الهوية الثقافية العربية أيضا من خلال وصف نادر لأحد البيوت لعائلة تونسية في فرنسا والتي يظهر من خلالها كيف حافظت هذه العائلة على الطبعة الشرقية العربية لبيتها ولم تغتر بالزي الغربي.

هذه الومضات والأمثلة التي اقتبسناها من المتن الروائي كانت بمثابة أمثلة حية عن تجليات الهوية الثقافية العربية وكذا الغربية من أجواء العيش والعادات والتقاليد التي ميزت الثقافتين والمعبرة عن الانتماء الصارخ.

الصراع الهوياتي في الرواية

تطرقت رواية "أن تبقى" إلى مأزق الاغتراب والهجرة غير الشرعية التي ربما تعود أسبابها إلى فقدان الشعور بالانتماء أو عدم الالتزام بمعايير المجتمع. إضافة إلى العجز الشخصي أو عدم الإحساس بالقيمة في الوطن الأم وبالتالي فقدان الهدف، كلها أسباب من شأنها أن تجر الذات نحو الاغتراب، وبالتالي الوقوع في أزمة الهوية. وهذا ما نلمسه في الرواية التي صورت لنا ذلك الصراع الهوياتي بين الأنا والآخر، إضافة إلى تلك المواقف المختلفة التي يحملها العربي تجاه الغرب والتي دفعته للهجرة واختيار الغربة.

[21]-خولة حمدي، المرجع السابق،ص.09.

[22]- المرجع نفسه، ص.182-183.

موقف الإعجاب

ويقصد به النظرة القائمة على الإعجاب والاندهاش والانبهار بالآخر لما وصل إليه من تفوق وازدهار ورقي وتقدم. لقد جسدت لنا الرواية هذا الموقف وهذه الرؤية التي دفعت بالبطل نادر الشاوي إلى المخاطرة بحياته عن طريق الهجرة غير الشرعية، تلك الرحلة التي كادت تودي بحياته، يريد الخلاص من الفقر والبطالة هروبا نحو جنته المرجوة وتحقيق حلمة في الوصول إلى الضفة الأخرى. وهذا ما يظهر في الرواية من خلال قول نادر : " هناك جنة.. جنة الله التي أعدها لعباده المؤمنين، ما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وجنة البشر على الأرض في خيالي وخيال شبان حيي العاطلين كانت أوروبا هي الجنة، فألقينا بأجسادنا في البحر نروم الموت لعل الموج يلفظنا فنلقى على شواطئ شمال المتوسط في الجنة التي نبغي". وفي موقف آخر له سرد لنا سعادته التي لا توصف عند وصوله إلى فرنسا، "تسكعت في شوارع مرسيليا من دون وجهة طيلة الليل مشيت في اعتداد وغرور وكأني ملك يتفقد ربوع مملكته أتبختر في ثياب متناسيا أزمتي المالية..لكني كنت ثملا برحيق الحرية[23]".

كانت هذه بعض المواقف التي جسدت الرؤية الانبهارية وموقف الإعجاب الذي تحمله الذات تجاه الآخر؛ لأن الغربي في ظنهم ذو عقلية متقدمة وقوة جبارة عظيمة.

ولكن سرعان ما نرى هذا الموقف الانبهاري يندثر وذلك بعد أن يترك الفرد وطنه نحو الغربة، إذ نجد أن هؤلاء المغتربين يتمنون العودة إلى التراب الوطني ويتجلى ذلك في روايتنا هذه.

موقف الصدمة

ونقصد بهذا الموقف ردة الفعل غير المتوقعة التي تصيب عادة المغتربين نحو أرض الآخر، ويبدو لنا ذلك جليا من خلال أحداث الرواية، حيث صورت لنا خيبة الأمل التي عاشها نادر الشاوي عندما شرب من كأس الاغتراب، فنجده يقول تعبيرا عن تلك

[23]- المرجع نفسه، ص.48.

الصدمة: "وأنا أتسلق متمهلا الربوة المطلة على الميناء والأبنية القديمة، كنت اكتشفت مشهدا جديدا لم يخطر ببالي على الإطلاق، ذابت الصور المشرقة التي رسمتها في ذهني للحضارة الغربية تحت أشعة الشمس، حالما التقت عيناي أكوام الأوساخ والأتربة المكدسة على حاشية الطريق، وتوقفت نظراتي على الجدران التي تساقط طلاؤها الأصلي.. والتقط أنفي الروائح العفنة اكتشفت بؤسا مدقعا لم أكن أتوقع وجوده على الضفة الأخرى من المتوسط[24]".

ويقول في مرجع آخر: " انحصرت الأحلام أكثر حين طالعني وجوه الصبيان الداكنة وهم يتحلقون في جماعات أمام مداخل العمارات. وجوه مشتتة ضائعة تشبه كثيرا الوجوه الكئيبة المحفورة في ذاكرتي وجوه الفقر...[25]".

ومن هنا يتبين لنا أن كل الأحلام التي بناها عن البقاع الأوروبية والجنة المرجوة ما هي إلا حلم وهمي بناه في مخيلته، وسرعان ما يتبخر إثر وقع الصدمة. وكان وقع الغربة أشد وقعا على نفسه.

الموقف العدواني

نشأت هذه الرؤية من خلال نظرة الأنا إلى الآخر نظرة محكومة بالتصادم والمواجهة، بوادرها محكومة بالتاريخ المر والماضي الكلونيالي الثقيل؛ حيث سعى هذا الأخير إلى إقصاء هوية الأنا ومحاولة تهميشها ومحوها بممارسة كل أنواع العدوان والاضطهاد. وهذا ما ولد للأنا العربية ذلك الإحساس بالعداوة والكره تجاه الآخر المستعمر.

وهذا ما نراه بين أسطر رواية "أن تبقى" حيث حاولت الروائية أن تبين لنا طبيعة الرؤية العدوانية للآخر، حيث نرى بأن البطل نادر الشاوي، رغم تلك النظرة المولعة بالغرب والرؤية الانبهارية التي سبق وأن أشرنا إليها والتي دفعت به للمخاطرة بحياته في عرض البحر، إلا أننا نصادف تلك النظرة العدوانية تجاه المستعمر، فيقول: "أن يكون بلدك عميد المستعمرات الفرنسية فذلك يعني أنك تملك حقا مشروعا في قصاصك من فرنسا وهو ثأر تقره لنفسك وتبرر به نزعتك الأنانية إلى هجران أرضك وأهلك إلى غير

[24]- المرجع نفسه، ص. 48.

[25]- المرجع نفسه، ص. 48.

رجعة كأنه ليس معني بالثأر سواك[26]"، وكأن بالبطل هنا يقول بأن سبب مجازفته بنفسه في عرض البحر وركوب قارب الموت لم يكن من موقف إعجاب وانبهار ولكن سببه الرئيسي حب الانتقام والشعور بالكره والحقد الذي غطى قلبه، ومن جهة أخرى يظهر لنا أيضا من خلال الرواية ذلك الحقد والكره الذي يكنه الغربي اتجاه الأنا العربية من نبد واحتقار والسعي وراء كل سبل الذل والهوان وهذا مايقوله نادر من خلال الأحداث عندما كان يسعا وراء كسب لقمة عيشه في فرنسا"كان المشرف السمين يظهر من خلفي على حين عقلة مثل مارد القمقم يصرخ ويعنف تحرك يا حمار! تحرك يا بغل! ماذا فعلت ..."[27]

ومن هنا تظهر صورة الحقد وانعدام الإنسانية التي تكبدها العربي في رحم الغربة قد كانت السبب الرئيسي الذي ولد للأنا حب الانتقام واتساع فجوة الكره والعداوة تجاه الآخر الغربي.

خاتمة: في الأخير يمكن القول بأن اشتغال الرواية العربية المعاصرة بموضوغ الهوية بات بشكل لافت، وارتباطها بتحليل الحوادث الواقعية من خلال ملامسة الواقع في جزئياته الانتمائية، وهذا ما لمسناه من خلال المدونة المدروسة، التي صورت لنا الروائية من خلالها رؤيتها المستوحات من الواقع الفعلي المعيش، والذي رصدته بعين ثاقبة وبحس فني مرهف فنقلته مركزة على المعاناة التي يمر بها الفرد حين لا ينصفه المجتمع الآخر.

عندما يحس المرء أن الحرية والعدالة غائبتين في المجتمع الغربي كانت الهجرة مخرجا من مخارج الأنا البسيط، فبطل الرواية لم يهاجر إلى فرنسا إلا هروبا من ظلم الواقع للاختباء في رحم الغربة، وقد كانت رواية " أن تبقى" عبارة عن رسالة وجهتها الروائية للمتلقيتحمل في فحواها الحفاظ على الهوية الذاتية ومقوماتها الأساسية بعدم الانفتاح والتماهي في الثقافة الغربية. وفي مقابل ذلك، تعمل الرواية على إبراز ذلك الجانب من التعايش الخضاري الذي يجمع الأنا بالآخر.

---

[26]- المرجع نفسه، ص. 47.

[27]- المرجع نفسه، ص. 114.